المجتمع الريفي قبل التنظيمات الجديدة :

سبق لكاتب المقالة ان بحث في كتاب « التعليم والتحديث »(١٧) بتوسع عن الاقطاع التقليدي اي الذي كان شائعا حتى العقد الرابع من القرن الماضي . جمع هذا الاقطاع بين وظيفة جمع الضريبة من الفلاحين وواجب تزويد الدولة بفرق من المقاتلين المحليين . لم يشرف الوالي، مباشرة على ارجاء ولايته بل ترك الامر لزعماء المجموعات المحلية المشرف كل واحد منهم على عدة قرى . وتنبع زعامتهم من ترؤسهم لاقوى العائلات في المنطقة والتي ترتبط معها العائلات او « الحمائل » الاخرى في وحدة الدفاع الذاتي كما ذكر سابقا . ونشأت هذه الوحدة لكون أراضي القرية مشاعا تتطلب تفاهما عاليا بين حلقات المجتمع القروي الضيق . وكانت الزعامة وراثية ارتباطا بنفوذ الحمولة النافذة ، ولذا تطور الاقطاع الى تسلط من قبل هذه العائلات على انفلاحين ، وتخلى أفراد الحمولة المتزعمة عن العمل الزراعي المباشر ، تاركين على عاتق الفلاحين زراعة الارض وحمل وزر ضريبة العشر . ولما كان « الاقطاعجي » يحصل على نسبة معينة من العشر سعى الى ضبط عملية التحصيل مستعينا اولا بقوة حمولته ومستعينا ثانيا بشروط الحماية الذاتية الموجبة للتفاهم مع العائلة الحاكمة . فاعتمد على تحصيل العشر من القرية على شيخ القرية ، الذي اعتمد بدوره على « مجلس الاختيارية » لتحديد نسب دفع العشر ، ويتلاءم هذا الانتداب مع طريقة حكم القرية اذ ان مجلس الاختيارية برئاسة الشيخ يحكم جميع جوانب حياة القرية(١٨)، وذلك اعتمادا على الشريعة القروية التي هي خلاصة عدة شرائع منها الاسلامية والعشائرية والقروية القديمة(١٩). ويشرف مجلس الاختيارية على توزيع ارض المشاع وتوزيع اعباء الفدية وتحديد عدد المقاتلين في العمليات القتالية المحلية او الخاصة بالوالي وتوزيعهم ، ويحل المجلس المشاكل الداخلية ، ويحسم الشيخ بدوره المشاكل الفردية داخل القرية ، بل وصلت شهرة بعضهم الى حل مشاكل السكان في المناطق الاخرى . وهكذا نجد ان الحكم الذاتي لم يتحقق فقط في اطار الولاية والناحية بل تعداه الى القرية والعشيرة البدوية وشبه البدوية ، ولكن لا يعني هذا الحكم الذاتي استقلالا تاما بل كما اتضح لنا سابقا توجد ارتباطات ادارية وذاتية تدفع الى تمسك القرى ببعضها في اطار الناحية .

بسبب انعدام المواصلات كما ذكر سابقا وجو الفوضى الذي خيم قرونا على ربوع السلطنة العثمانية خصوصا في المناطق المتاخمة للبادية ، انعزلت التجمعات القروية عن بعضها ، وحكمت نفسها ذاتيا وعاشت على الاكتفاء الذاتي . وفي نفس الوقت تقلص عدد السكان نتيجة زحف الصحراء وغمرها لاقسام اضافية من المنطقة الحضرية ، فتحول سكان هذه المناطق الهامشية الى رعاة مع عدم التخلي تماما عن ممارسة الزراعة . وزحفت افخاذ من العشائر البدوية لتحتل السهول المنخفضة جاعلة منها مراعي لمواشيها . هرب الفلاحون الى الجبال حيث للانتاجية والانتاج حدود خصوصا في جو الارهاب العام . واستطاع آخرون التجمع في المنطقة الممتدة من غزة الى اللد حيث تتواجد عدة مدن قادرة مع تجمعهم القروي على توفير الحماية .

كانت دائرة زراعة القرية محدودة لضرورة العودة مساء الى القرية ووصولها بسرعة حال حدوث غزوة . وداخل هذه الدائرة زرع الفلاح ما يحتاج اليه من انواع الخضار والحبوب والاشجار المثمرة ولكن ضمن المعطيات المناخية والمائية ، واهمها انتساب فلسطين الى منطقة المناخ الجاف ــ البحر المتوسطية فلذا وجب على الزراعة التقليدية اخذ المعطيات البيومناخية بعين الاعتبار . زرع الفلاح جميع اصناف الخضار والاشجار المثمرة في الاراضي المروية ، فكانت بساتين القدس ونابلس والخليل ويافا واللد والرملة